مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

2015 كتاب في دقائق

ملخصات لكتب عالمية تصدر عن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

مجتمعون ووحيدون

عندما تنتصر الروبوتات على العلاقات

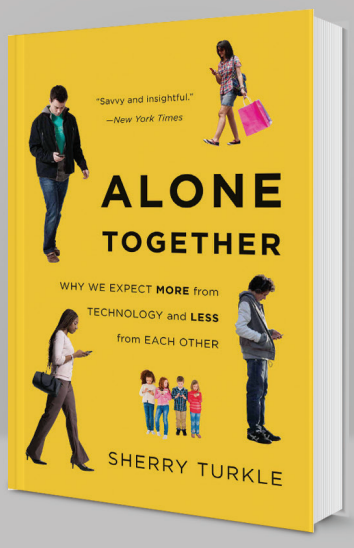

تأليف
شيري تيركل

في ثوانٍ...

نجحت التكنولوجيا الحديثة في تطوير عالمنا الحديث في كافة جوانبه ولم يبقَ أيُّ مجالٍ إلا وكان لها دور أساسي في نموه وتطوره، وفي خدمة الإنسان نحو حياة أفضل وأكثر سهولة. لكن في المقابل أثَّر هذا التطور التكنولوجي الضخم بشكل جذري في إنسانيتنا القائمة على التواصل الملموس، وبتنا نجد أفراد العائلة الواحدة مجتمعين لكن كلٌّ في عالمه أو أمام شاشته أو هاتفه الذكي يبحث ولا يفكر، يتلقى ولا ينتج. فاختفت الحوارات الحميمة والضحكات الصاخبة ليحل محلها صمت التكنولوجيا، وربما أكثرنا لا يعي مقدار الخطر المحدق في أساليب وحجم تواصلنا مع كل من حولنا، هذا التواصل القادر على إطلاق طاقاتنا الكامنة والإيجابية سواءً في العمل أو مع رؤسائنا وعائلاتنا، وهو وسيلة التعبير الحقيقية التي تخترق الحواجز. لذا من المهم أن نعي حجم المشكلة جيداً ونضع لها الحل الذي يتركز ببساطة على مفهوم التوازن في كل شئ، نعم نحتاج التكنولوجيا لكن لنرشد استهلاكها في سبيل تقارب أكبر وعلاقات أمتن مع كل من حولنا. ولنكسر عالم الصمت ونرجع لحياتنا المليئة بالمشاعر والأفكار المبتكرة.

وضمن مبادرة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم «كتاب في دقائق» والتي دأبت على تقديم أفضل المؤلفات والكتب العالمية في شتى المجالات من خلال ملخصات شيقة لجميع القراء، نضع اليوم بين أيديكم مجموعة جديدة من الكتب، التي تسلِّط الضوء على موضوعات تتناول تأثير التكنولوجيا على العلاقات الاجتماعية، وفن ممارسة قيادة الابتكار، إلى جانب موضوع يناقش أساليب التحفيز وإيقاظ الطاقات الإيجابية لدى البشر .

في الكتاب الأول من المجموعة الجديدة «مجتمعون ووحيدون ... عندما تنتصر الروبوتات على العلاقات»، سنتعرف إلى النتائج السلبية للابتكارات الإيجابية مثل أدوات التواصل الإلكتروني من الهواتف الذكية أو أجهزة الكمبيوتر اللوحية والتي قرَّبتنا من البعيد وأبعدتنا عن القريب، فأصبح الناس أكثر عزلة، ومسمرين أمام شاشاتهم المختلفة. وأثَّر ذلك أيضاً وبشكل سلبي على الأطفال.

ويوضح كتاب «النبوغ الجماعي ... قيادة الابتكار فناً وممارسة»: العلاقة بين الابتكار والقيادة وأهمية بث روح الابتكار في العمل من خلال القيادة. ويرى الكتاب أن الابتكار نشاط ارتجالي في المقام الأول، لذا من المهم لكل قائد في أيِّ مؤسسة أن يزرع القيم المشتركة بين المؤسسات في فريقه، وتشمل الطموح الشجاع والتعاون والتعلم والمسؤولية.

ويقدم كتاب «الوجيز في قوانين التحفيز ... كيف توقظ طاقاتك الإيجابية الكامنة» الطريقة الصحيحة التي يمكننا من خلالها استعادة قوتنا الشخصية الخفية ومن ثم إطلاقها للعالم. ويحدد الكتاب عناصر الحياة الذكية المفعمة بالإيجابية وهي التي نعيشها وفقاً لشروطنا الخاصة، ونستمتع بكل لحظة فيها بلا خوف من الماضي أو ضغوط من الحاضر. كما يوجهنا الكتاب لطرق التعبير عن مشاعرنا وطموحاتنا بشجاعة.

وفي الختام أتمنى أن تنال موضوعات الدفعة الجديدة من «كتاب في دقائق»استحسانكم، وأن ترفد مخيلاتكم بالمزيد من الإبداع في جميع جوانب حياتكم.

جمال بن حويرب
العضو المنتدب لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

هل تحنُّ إلى تلك الليالي التي كانت تجتمع فيها العائلة ويلتقي فيها الأصدقاء لتجاذب أطراف الحديث بعيون مترقِّبة وآذانٍ مصغية وشفاهٍ مبتسمة؟

هل تدخل إلى المجالس اليوم ويطالعك مشهد «المجتمعين الصامتين» أو «الكثيرين الوحيدين»، هذا يتابع برنامجاً تلفزيونياً، وذاك محدِّق في «هاتفه النقَّال»، وثالثٌ مستغرقٌ في جهازه اللوحي، ورابعٌ يداه على لوحة المفاتيح ووجهته حاسوبه؟

إن كان جوابك بالإيجاب، فأهلاً وسهلاً بك في «عصر اللَّمس السحري»، حيث تقرِّبك اللَّمسات على مفاتيح اللوحات من البعيد، وتباعد بينك وبين القريب، ومرحباً بك في «عالم الشاشات» حيث تنتقل من الجهاز النقَّال إلى الجهاز اللوحيِّ، ومن التلفاز إلى الحاسوب الشخصيِّ.

نتائج سلبية لابتكارات إيجابية

ظهر التواصل الإلكتروني كوسيلة بديلة عن الاتصال المباشر (وجهاً لوجه) عند تعذُّره لأيِّ سببٍ من الأسباب؛ فعندما تظنُّ أنَّك لا تملك الوقت لإجراء مكالمة هاتفية، فإنَّك ستكتب رسالتك على الجوَّال وترسلها فستصل في الحال، ثمَّ تَغيَّر ذلك سريعاً وصار التواصل الإلكتروني الصوتي والمرئي هو الخيار المفضَّل لدى معظم الناس في عالمنا المعاصر.

اهتدى البشر إلى التواصل الإلكتروني العابر للمسافات ليناسب نمط الحياة العصرية السريعة والصاخبة والمزدحمة بالأعمال ولم يدُر بخلدهم أنَّ الغيوم المبلَّلة تُخفي البرق وتحمل الرعد؛ فزاد تواصلهم وتعاظمت عُزلَتهم، وكثرت مشاغلُهم وضاع وقتُهم. ومع مرور الوقت تحوَّل العالم الشبكي الافتراضي إلى عالم حقيقي وأضحت العلاقات العابرةُ مطلباً مُلحَّاً بعد أن كانت باعثاً على الضجر والشكوى. فالتكنولوجيا جعلتنا منشغلين أكثر من أيِّ وقتٍ مضى وأصبحنا أكثر ميلاً إلى العزلة. وبالتدريج صارت الحياة عبر الشاشات هي أقصى طموحاتنا وبدأنا نؤمن بأنَّ هذه الحياة هي الطريق الطبيعي للعلاقات الجادَّة.

في حين نرى أنَّ التواصل الإلكتروني يتعاظم فإنَّ العلاقات الإنسانية تتضاءل. فأيَّ طريق نسلكه؟ إنَّه طريقٌ أحاديُّ الاتجاه، يجعلنا نغضُّ الطَّرف عن مزالق التكنولوجيا ونعتبر الحديث عن ذلك نوعاً من الهراء أو نظرةً عمياء أو في أحسن الأحوال توقاً إلى الماضي تجاوزه الحاضر المتحفِّز لتطوُّرات المستقبل، كيف لا وهي التي أزالت الجدران؟ لكنَّنا نسينا أو تناسينا أنَّها أسرتنا في زنزانة مستطيلة الأبعاد سمَّيناها «شاشة». ولكن إذا سألنا أنفسنا عمَّا «فقدناه» بسبب اعتمادنا وإدماننا المتزايد على التكنولوجيا فقد نكتشفُ أنَّنا فقدنا أكثر الأشياء التي تهمُّنا وأجدرها بحمايتنا، فنعدُّ أنفسنا ليس لنبذ التكنولوجيا بالضرورة ولكن لتطويعها في تعزيز علاقاتنا وحماية كلِّ ما هو غالٍ علينا. يقول «وينستون تشرشل»: «نحن نصمِّم ونُشكِّل أبنيتنا، ثمَّ تأتي هي لتشكِّل شخصيَّاتنا». وبالمثل نحن نصمِّم ونصنِّع التكنولوجيا التي نستخدمها فتقوم تلك التقنيات بالمقابل بتشكيل وتصنيع وتغيير حياتنا. ولذا، وجب علينا أن نسأل أنفسنا قبل الشروع في استخدام أيِّ شكلٍ من أشكال التكنولوجيا: «هل تخدم هذه التكنولوجيا إنسانيَّتنا في المقام الأول أم لا؟».

الروبوتات تصافحنا في الطُّرقات

في ستينيَّات القرن الماضي انطلق الجدل حول «الذكاء الصناعي»، واستمرَّت النقاشات والتساؤلات حول ذكاء الآلات وحدود قدراتها حتَّى نهاية الثمانينيَّات. لكنَّ الانفجار المعلوماتي العظيم والتطوُّر التقني الرهيب نقلنا إلى مرحلة جديدة يمكن أن نسمِّيها مرحلة: الإنسان الآليِّ.

مع بداية الألفيَّة الجديدة استيقظ الأطفال على ضيفٍ جديدٍ في غرف ألعابهم، ألعاب آليَّة تحاول أن تحاكي الطبيعة البشرية، لتضرب على أوتار مشاعرنا عندما نراها تستجيب وتتفاعل وتتحرَّك وتتلوَّن وتتشكَّل أمام أعيننا فيبدأ الارتباط العاطفي مع هذه الآلات. مثل هذا الارتباط لا يتعلَّق بكون هذه الكائنات الآلية ذكية أو عاطفية، لأنَّها في الحقيقة ليست كذلك، إنَّما لأنَّها تحرِّك في داخلنا المشاعر الإنسانية الكامنة. فالروبوتات بحدِّ ذاتها لا تخدعنا إنَّما تساعدنا على أن نخدع أنفسنا وعندها تُفتح الستارة على مشاهد مسرحيَّة «إنساليَّة» لا تخلو من الإثارة.

الطفل يشير، والآليُّ يسير

قديماً عرَّف أرسطو الإنسان بأنَّه «حيوان عاقل»، هذا المعنى استقرَّ طويلاً في حسِّ الرجل الكبير والطفل الصغير، فلو سألت قديماً هذا الأخير ماذا يميِّز الإنسان عن غيره من المخلوقات فإنَّه يتلفَّت حوله ليرى أقرب جيرانه من الحيوانات الأليفة غير المخيفة كالوعول والخيول والطيور، فيجيب بلا تردُّد: «الحيوانات لها مشاعر مثلنا، لذلك ما يميِّزنا هو العقل وقدرتنا على التفكير والتحليل».

ولكن مع منتصف الثمانينيَّات ابتعدت الحيوانات واقتربت الآلات وصار الأطفال يميزون الإنسان بمشاعره وأحاسيسه فقط، فأقرب الجيران هو «الذكي البليد». وفي نهاية التسعينيَّات تمَّ تجهيز المكان واختيار الزمان للقاء الأطفال مع «الإنسان الآليِّ»، ذلك الآليُّ الذي يحاكي الإنسان في مشاعره وتصرُّفاته ومطالبه واحتياجاته.

في البداية ظهر «تماغوتشي» المخلوق الرقمي الأليف الذي يظهر من خلال شاشة حاسوبية بيضاوية ليطلب منك إطعامه وتنظيفه واللعب معه، ثمَّ ظهرت «فيربي» البومة الإلكترونية التفاعلية التي تلعب وتتعلَّم اللغة الإنجليزية وتخبرك بجوعها وحزنها وإذا قلبتها رأساً على عقب تصرخ من الخوف وتصدر أنيناً كأنَّها تتألَّم حقاً. حتَّى بدا وكأنَّما وجدت هذه الآلات طريقها إلى عالم المشاعر أخيراً وحقَّقت شيئاً من النجاح.

كلمة السرِّ الخفية وراء سحر هذه الألعاب الإلكترونية هي «الحنوُّ»، حيث جُبِل الإنسان على تقديم الرعاية والحنان، وهؤلاء الزوَّار القادمون من كوكب الألعاب من دون أزرار الإطفاء والمحتاجون إلى العطف والتعلُّم والعناية يغرسون مشاعر الاهتمام والرعاية الفطرية في النفوس البشرية. ومن المعروف أنَّ الأطفال يستمتعون بتعليم غيرهم والاعتناء بهم فيبدأ حبُّهم غير المشروط لهذه الألعاب

منذ بدء تشغيلها، ويصبحون متأكِّدين أنَّ هذه الألعاب ستنمو معهم لتفهمهم وتُغنيهم عن أيِّ تواصل إنسانيٍّ مع الإنسان المطبوع لا المصنوع.

لثلاثة عقود خلت استعان النَّاس باختبار الطبيب السويسري (هيرمان رورشاخ) الذي اشتهر باختبار «بقع الحبر» لدراسة شخصيَّاتهم ووصف علاقاتهم بالكمبيوتر وفي هذا الاختبار الإسقاطي يستخدم الطبيب النفسي عشر بطاقات عليها بقع حبر، واستجابات الأفراد لهذه البطاقات تعكس مكوِّنات اللاشعور نحو الخارج، لترسم صورةً لمشاعرهم وأنماط تفكيرهم. غير أنَّ تفاعل الأطفال مع الروبوتات الأليفة مثل «فيربي» تجاوز نظرية الإسقاط إلى سلوك الارتباط، حيث يتعامل الأطفال معها كما لو كانت قططهم المدلَّلة أو طيورهم المُدجَّنة أو أصدقاءهم المقرَّبين.

هل الكائن الآليُّ رفيقٌ مثاليٌّ؟

مع الرفيق الآليِّ ستشعر بالمتعة والراحة والإثارة، لكنَّك ستفقد تفاعلك مع وجهات نظر الآخرين التي تمنحك عيوناً إضافية لرؤية العالم متعدِّد الأبعاد. ومن دون هذه العيون يضيع التعاطف بين القلوب.

وفي هذا الصدد، تحدَّث المحلِّل النفسي «هينز كوهت» عن الشخصية النرجسية هذه الشخصية المضطربة المتمحورة حول ذاتها؛ الهشَّة داخلياً والعاشقة لنفسها والتي ترى نفسها الأكمل والأفضل والأمثل والأعقل والأجمل، لأنَّها - ببساطة - ترى أيضاً أنَّ الغرض الأساسي من وجود الآخرين هو تلبية حاجاتها، فتحاول الاستفادة من مزاياهم لتحقيق مصالحها الشخصية، لتنتهي الحكاية بخيبة أمل حتمية. فالروبوتات الأليفة - لن تكون كما نعرفها اليوم فحسب، بل وكما وعد المصمِّمون فإنَّها مرشَّحة لتكون قريباً اللاعب الأساسيَّ والرفيق المثاليَّ للإنسان النرجسيِّ.

أن تكون نرجسياً يعني أنَّك تعامل الأحياء كأشياء، والأشخاص كقطع غيار تستخدمها كيفما تشاء. وبالنظر إلى ذلك فإنَّ الروبوتات بأجسادها الآلية وطبيعتها الميكانيكية وتصرُّفاتها العاطفية تقدِّم نفسها بديلاً افتراضياً للطبيعة البشرية المقاومة بفطرتها الإنسانية الجميلة للنرجسية. وألا تكون نرجسياً يعني أنَّ العالم بأسره بالنسبة إلى كلٍّ منَّا - باستثناء فرد واحد فقط - عبارة عن آخرين، ورغم أنَّ معظم سكَّان هذا الكوكب لا يعرفوننا ولن يسمعوا بنا، فإنَّ فطرتنا الإنسانية النقية كثيراً ما تعلِّمنا كيف نؤثِر الآخرين على أنفسنا ونقدِّم تعاطفنا وخدماتنا لهم.

في بيتنا «طفلوبوت»

الطفل الحقيقي يعبِّر وهو صغير عن سعادته أو حاجته إلى اللعب، ورغم أنَّه طبيعي وغير صناعي، فإنَّه يضيف المكونات السحرية إلى الخلطة الروبوتية؛ فهو يبتسم ويضحك، يعبس ويصرخ، يغمز ويمصُّ إبهامه. وكأيِّ روبوت آليٍّ حديث، فإنَّ الطفل يدعوك إلى معرفة طبيعته لقراءة مزاجه وفكِّ شفرته، هل هو متعَبٌ يريد نوماً هانئاً أم خائفٌ يبحث عن لمسةٍ دافئةٍ أم جائعٌ يطلب الطعام أم مبتلَّة حفَّاظته ويحتاج إلى إهتمام كي ينام.

وتمضي الأيام سراعاً لنرى الرضيع وقد صار عمره سنتين، وتحلُّ الكلمات والجمل بدلاً من الصراخ والأنين، وبعد طول حبو يقف الروبوت الصغير على قدميه مؤذناً بأفول «مرحلة الرضاعة» وبزوغ «شمس الصناعة» ومرحلة التربية المنهجية التي من المفترض أن تُشكِّلَ شخصيةَ الطفلِ وطباعَه.

أطفالنا يساعدوننا على تخيُّل الروبوتات في كلِّ ما يحيط بنا في حياتنا اليومية. وهذا ليس غريباً فنحن نحيط أطفالنا بالاهتمام والحنان صغاراً، ليخفضوا لنا جناح الرحمة والعرفان كباراً. ولكن الغريب أنَّ هذه المتلازمة الشعورية تدقُّ ناقوس الخوف في النفوس إذ تستحضر خيبة الأمل من أقرباء وأصدقاء وجلساء كنت عليهم معوِّلاً، فيقفز إلى الأذهان ذلك الروبوت الذي يحضر إذ يغيبون ويصمت إذ يتبرَّمون ويلبِّي طلباتك إذ يتأفَّفون ويبقى مستيقظاً إذ ينامون. وتدريجياً نضع أطفالنا موضع مقارنة مع الرفيق الآليِّ الذي لا يكَلُّ ولا يملُّ من مرافقتنا وخدمتنا ونعتبره صديقنا الحقيقي الوحيد.

وظائف شاغرة

يعشق الطفل الصغير أجداده لأنَّه يكون على الدوام محور الاهتمام، غير أنَّ تكاليف الحياة قد تصرف الأهل عن أداء مسؤولياتهم تجاه أطفالهم «الأحفاد» وآبائهم «الأجداد»، ولعلَّ هذا الانشغال الشعوري يفسِّر تعلُّق الأحفاد بأجدادهم الذين يُغدِقون عليهم العطايا ويحيطونهم بالاهتمام والرعاية، وهيام الأجداد بأحفادهم الذين يرسمون لهم ربيع الذكريات في خريف النهايات.
ومن هذا المنطلق هل تُصلِح الروبوتات ما أفسدته الأشغال والأعمال؟

لقد طوَّر العلماء (الدكتوروبوت) ليساعد كبار السن في تذكُّر مواعيد تناول الأدوية ووجبات الطعام، بل إنَّه بإمكان بعض الأجهزة الآلية أن تجلب لك الدواء أو قناع الأكسجين وتراقب عمل وظائف الجسم الحيوية وتُطلق صفَّارةَ الإنذار في الحالات الحرجة والضرورية.

بعض الأطفال مفتونون بقدرة هذه الآلات على تنفيذ المهمَّات العملية، حتَّى استقر في حسِّهم أنَّ بإمكانهم الاعتماد على الروبوتات أكثر من النَّاس، فالروبوت يقدِّم الماء للجدَّة في منتصف الليل، وهو مجهَّز بلوازم الطوارئ دوماً، حتَّى أنَّه لا يحتاج إلى النوم ويداوم على العمل بلا كسل أو ملل. غير أنَّ خيال الطفل الجامح ينقلنا من (الدكتوروبوت) العامل الذي يقدِّم الخدمات إلى (الروبوت الصديق) الذي يشاركنا الأوقات ونستمتع معه بأجمل اللحظات.

في هذا المجال بات الأطفال ينظرون إلى الروبوت وكأنَّه فرد من أفراد العائلة له قدرات خارقة، ممَّا أدَّى إلى ظهور مشاعر تنافسية داخل نفوس الأطفال مع الروبوتات تشبه إلى حدٍّ ما مشاعر التنافس التي تتولَّد بين الأشقَّاء. لخَّصت طفلة مشاعر الفزع البريئة قائلة: «إذا تعلَّقت جدَّتي بالروبوت فمن المحتمل أن تعتبره عائلتها، وعندها لن نصبح نحن ذوي أهمية بالنسبة إليها».
الأطفال يقلقون فعلاً من تلك العلاقة الدافئة بين أجدادهم والروبوتات ويتخيَّلون أنَّ الأجداد ممتنُّون لها ومولعون بها ومعتمدون عليها. وبالتالي تصبح الروبوتات التي بدت للوهلة الأولى «واحةً خضراء» خيالاً مفزعاً وخوفاً مؤرِّقاً لكلِّ أفراد الأسرة.

دار حوارٌ في إحدى شُعَب الصفِّ الخامس الابتدائي حول علاقة الأجداد بالروبوتات التي تقدِّم لهم العناية والرعاية، وانقسم الطلاب ما بين مؤيِّد ومعارض، لكنَّ براءة الأطفال أبت إلاَّ أن تهُزَّ نفوسنا، وتحذِّر من خواء تداعيات تطورنا الحضاري، إذ انتهى نقاشهم إلى سؤال صادم: «أحقّاً لا يوجد بين بني البشر مَن يريد أن يقوم بهذه الوظائف؟!».

لقد انتشر استخدام الروبوت في المصانع وخطوط الإنتاج منذ زمن بعيد لكنَّه لا يزال يخطو خطواته الأولى ليكون فرداً من أفراد العائلة قريباً وعندما يسأل الأطفال «أحقّاً لا يوجد من البشر مَن يقوم بهذه الوظائف؟!»، فإنَّهم يقولون: «أنتم تصنعون المشاكل ثمَّ تهرعون إلى التكنولوجيا لحلِّها»، ويلقون، بسؤالهم هذا، الضوء على طريقتنا الجافة في تخصيص الموارد المتاحة أمامنا، فرعاية الأطفال وكبار السن لا تصبح مشكلة حقيقية حتَّى نقرِّر نحن أنَّنا لا نملك الوقت الكافي ولا الموارد اللازمة لرعايتهم ومرافقتهم. بل إنَّ هذا السؤال يُنذرنا ويحذِّرنا من تعلُّقنا اللاواعي برفقة الروبوتات ولجوئنا إليها وكأنَّها من أصدقائنا المقرَّبين ومنقذينا في الأزمات. فالأطفال ببراءتهم وعفويَّتهم في طرح هذا السؤال يذكِّروننا بضرورة إدارتنا للوقت، وإعادة تحديدنا لأولويات حياتنا، وإصلاح ما تفتَّق من علاقاتنا.

التكنولوجيا تتغيَّر ويبقى الإنسان هو الإنسان

علينا أن نرفع القُبَّعات لدور الروبوتات في علوم الفضاء والطبِّ وظروف العمل الخطرة والصناعات، لكنَّ ذلك الاندفاع المنفلت من عقال الإنسانية لإحلال الروبوتات في وظائف العناية والرعاية البشرية يجعلنا كراكب سيارة فارهة فقدت مكابحها. إنَّها تجربة إنسانية تتجافى وتتنافى مع العواطف الإنسانية.

المبرِّر الأكثر شيوعاً لمناصري تفويض مهامِّ العناية إلى الروبوتات ترتكز إلى وهم «تشابه الرعاية المقدَّمة»، وغالباً ما تساق هذه الحجة عند الحديث عن حالات المرض والنسيان والشيخوخة التي يفقد معها المريض التمييز بين الإنسان والروبوت. ولعلَّ هؤلاء الأنصار غفلوا عن عدم معرفتنا على وجه التحديد كيف يستقبل أصحاب الإعاقات الذهنية لمسة الإنسان الحانية وابتسامته الصافية، بما يدحض مبرِّر الرعاية المتساوية. فإذا كان أصحاب الإعاقات الذهنية لا يعرفون مَن نحن، فنحن علينا أن نعرفهم وأن نعرف من نكون. وفي اللحظة التي يتخلَّى الإنسان عن ميثاق الرعاية لغيره من بني الإنسان يكون قد فقد قلبه، واعترف بسطوة وسيطرة الآليِّ على الإنسانيِّ.

وهناك من يجادل بأنَّ الطفل يلعب بدميته منذ القِدم، فلماذا هذا التوجُّس من الروبوتات الأليفة؟ ولكن غاب عن المجادلين سهواً أو قصداً أنَّ الطفل يعلِّم دميته السلوك الآدميَّ في الوقت الذي يحاكي سلوك الروبوت الآليِّ. ولا ندري على وجه التحديد أيَّ أثر سلبي يمكن أن تحمله هذه المحاكاة، فالإنسان ما انفكَّ بحاجة إلى أن يترعرع مع الإنسان ويتواصل مع ذلك المزيج اللانهائي من المشاعر المركَّبة من تعابير الوجه ونغمات الصوت وحركات الجسد؛ فهو يحبُّ أن يرى العيون تلمع مع الفرح وتنطفئ مع الحزن ويشعر بالارتياح مع مَن يعبِّر عن مشاعره بانسيابية وتلقائية بعيداً عن البرمجة الآليَّة والدَّالات الحسابية والجمل المنطقية.

العالم الافتراضي

إذا كانت الروبوتات الأليفة تشعرك بالأنس بعد الوحشة وتملأ عليك وحدتك وتنقذك من عزلتك، فإنَّ التواصل الشبكي عبر الإنترنت ينقلك إلى عالم آخر، عالم عابر للجغرافيا واللغات والألوان والأعراق والأجناس، عالم يختصر الزمان والمكان في لوحة مفاتيح، عالم افتراضي يذهلك عن العالم الحقيقي، عالم يحوِّل الأحياء إلى أشياء لتختار أكثرها تسليةً وفائدةً عالم نتواصل فيه بلا حدود. غير أنَّ كلَّ تلك القصور الرملية تنهار أو تتطاير في الهواء عندما تغلق جهازك وتلتفت حولك لتكتشف أنَّك ما زلت وحيداً فتصاب بالهلع فتهرب إلى جهازك من جديد لتعيش الحياة الوردية بعيداً عن تبعات ومسؤوليات حياتك الحقيقية.

إنَّ العلاقات الشبكية والروبوتات الاجتماعية وجهان لعملةٍ واحدةٍ اسمها «الرمال المتحرِّكة»، حيث تغوص أكثر كلَّما تحرَّكت أكثر، أو إن شئت «المياه المالحة» حيث تعطش أكثر كلَّما شربت أكثر.

وعندما يفتح الطفل عينيه على الحياة ليستقبله المحمول والملموس، فإنَّه قد خطا أولى خطواته إلى الانغلاق حول الذات وبناء عوالم الروبوت والريموت، ومَن يدري فقد لا يلبث طويلاً حتَّى يحوِّل طعامه وشرابه إلى برنامج قابل للتنزيل من متاجر جوجل أو أبل أو أمازون دوت كوم.

الحاضر الغائب

في هذه الأيام يرتبط تواصلك مع الآخرين بقربك من التكنولوجيا لا من الأشخاص، فوجود حزم البيانات على الموبايل مدعاة للأمان والاطمئنان في حالة مشابهة لأعراض الإدمان. فنحن نحمل معنا مظاهر التكنولوجيا أينما نذهب في معظم الأوقات. وفي الحقيقة صارت الوحدة المكانية مطلباً ليقوم الإنسان باتصالاته الإلكترونية، لأنَّ تلك الوحدة توفِّر له التركيز والخصوصية خلف شاشة الكمبيوتر.

وفي هذا النظام الجديد لم تعُد محطَّات القطارات وصالات المطارات مكاناً للتعارف في أثناء فترات الانتظار، حيث صار من المألوف مشاهدة المسافرين منهمكين ومنهكين ومنكبِّين على هواتفهم الذكية مع أناس بعيدين، ومنفصلين شعوريّاً وذهنياً عمَّن يجلس إلى جانبهم ويسمع أنفاسهم ولا يعرف إحساسهم.

عندما يتحدَّث الناس في الأماكن العامة من خلال هواتفهم، يسيطر على شعورهم بالخصوصية افتراض أنَّ مَنْ حولهم لن يتعاملوا معهم وكأنَّهم أشخاص مجهولون فحسب، بل وكأنَّهم ليس لهم وجود من الأساس. وإذا فكَّرنا في الموضوع من زاوية أخرى، فسنجد أنَّ هؤلاء الذين يفضِّلون التحدُّث عبر الشاشات عن العلاقات الإنسانية هم مَن يضعون أنفسهم في إطار الحاضر الغائب. وهذا يعني أنَّ الإنسان قد أصبح في وجود الآليِّ أقرب إلى سلوك الرجل الآليِّ إذ فقد المكان بريقه عندما ضاعت ابتسامات الشفاه ولقاءات العيون وحديث القلوب وتلويح الأيادي وعناق الأرواح. فالمكان يفقد تعريفه وبصمته إذا غاب الإنسان وحضرت الجدران.

القناع: إمتاع بلا إشباع

نحن لا نتوقَّف عن البحث عن هويتنا طوال حياتنا وفي عالم التواصل الاجتماعي يمكنك أن تبدِّل الجلد وتلبس القناع؛ حيث الرمادي يغدو ملوَّناً والباهت يبدو ساحراً، الكبير ينقص من عمره السنوات، والبدين يفقد عشرات الكيلوغرامات. كلُّ ما عليك فعله هو أن تغمض عينيك وترسم صورتك التي تحبُّ وحياتك التي تريد ثمَّ أطلق العنان ليديك على لوحة المفاتيح لتختار اسمك ورسمك.

لقد وُلِدتَ الولادة الثانية، ولادةً غير طبيعية جعلتك أحد أبناء أسرة الإنترنت. تستطيع الآن أن تحدِّد مؤهِّلك وتبدأ مشروعك وتشتري العقارات وتؤثِّث بيتك بأفخم المفروشات ليس هذا فحسب؛ بل ويمكنك أن تنسج العلاقات وتبني الصداقات وأن ترتاد الفنادق الفارهة والمطاعم الفاخرة. فلا مكان هنا للفوز أو الخسارة، فقط الاستمتاع بالحياة التي طالما أردت أن تعيشها.

صار من الشائع والمألوف أن يقضي الناس معظم الأوقات في الدردشة خلف الشاشات، ظناً منهم أنَّها تحقِّق الذات وتشبع الرغبات وتسهِّل عملية اتخاذ القرارات وتحرِّرهم من التبعات. ففي مثل هذه المرحلة، ينتقل الناس من المهام المتعدِّدة التي يؤدُّونها في حياتهم الواحدة إلى مستوى آخر تتعدَّد فيه أشكال الحياة وتبقى المهام ثابتة لا تتغيَّر.

هل هذه لعبة مسلية؟ يمكنك قول ذلك، لكنَّها تبدأ كلعبة تمتِّعك لا تلبث أن تستحوذ عليك لتصبح جزءاً من حياتك التي ربَّما تُلهِمك وربَّما تَهدِمك.

السبب قبل الذهب

عُرف عن الكيميائيين القدامى اشتغالهم بتحويل الرصاص الرخيص إلى ذهب ثمين بهدف تحقيق ثروات طائلة لا حدود لها. غير أنَّ كيميائيي التكنولوجيا والسرعة والعمل المستمر انشغلوا بتحويل الدقيقة إلى ساعة، والساعة إلى يوم، فاخترعوا الهواتف الجوَّالة الذكية والأجهزة اللوحية لتكون الوصفة السحرية التي تمنحك عمراً إضافياً واتصالاً فورياً عبر كتابة الرسائل النصية بدلاً من المحادثات الودِّية.

لكنَّ حجم الضغوط الناجمة عن استخدام هذه التكنولوجيا جعلنا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فزادت الدردشات الكتابية وقلَّت الحوارات الإنسانية، وزاد الاتصال وقلَّ التواصل، وبدلاً من أن تمنحنا التكنولوجيا أوقاتاً إضافية جعلت كلاً منا بحاجة إلى سكرتيرة لإدارة حساباته الإلكترونية، وغرقنا في التفاصيل اليومية والردود الآنية وانصرفنا عن القضايا الجوهرية والخطط الاستراتيجية. فنحن نؤمن بأنَّ العالم الذي نعيش فيه يزداد تعقيداً، ولكنَّنا مع ذلك تبنَّينا ثقافة للتواصل تقلِّل من الوقت المتوفِّر أمامنا لنجلس بهدوء ونفكِّر ونتأمَّل أحوالنا بعمق وتركيز.

نحن نهدر الكثير من الوقت في بحثنا الإلكتروني عن ذواتنا، ولم نُحوِّل الرصاص إلى ذهب لأنَّنا لم ندرك السبب. فهل كان أطفال الصفِّ الخامس الإبتدائي على حقٍّ عندما أشاروا إلى أنَّنا نصنع المشاكل ثمَّ نهرع إلى التكنولوجيا لحلِّها؟

الاستقلالية الضائعة

في روايته «مغامرات هاك فين»، يصوِّر الروائي الأمريكي «مارك توين» بحث المراهق عن ذاته والهروب من مجتمعه، من خلال الوقت الذي يقضيه هارباً على طول نهر المسيسبي مجسِّداً رغبة المراهق في الانعتاق من سلطة الأهل. ولكن هذه الصورة تغيَّرت في عصر التكنولوجيا.

في النموذج التقليدي، يرتبط الأطفال بأهلهم ارتباطاً مباشراً ردحاً من الزمن قبل عبور عتبة الاستقلال. أمَّا في النموذج التكنولوجي المعاصر فإنَّ الارتباط المباشر يتقلَّص لصالح الارتباط عبر الهواتف الذكية والمواقع الاجتماعية. ولم يعد المراهقون يواجهون سؤال الهويَّة ونمط الشخصية وضغوط الاستقلالية عند الولوج إلى مرحلة الشباب.

من ناحية أخرى أضحى المراهقُ أسيراً لهاتفه الذكي، لا يستطيع الفكاك منه، بل إنَّه يشعر بالغربة والنقص عند خروجه من البيت ونسيانه، فالهاتف الجوَّال المتصل بالإنترنت يؤنسه أكثر من عشرات البشر حوله. فإذا ما نظرنا إلى نصف الكوب الممتلئ فسنرى المراهقين يكتشفون أنفسهم بمشاركة عواطفهم وأفكارهم مع الآخرين، والتكنولوجيا جعلت التواصل الشعوري أسرع وأسهل وأصدق وأكثر تلقائية.

المكالمات تبوح بالمكنونات

من الشائع أنَّ إخفاء الهوية يساعد الإنسان على التصرُّف بحرية وتلقائية، وقد استقرَّ في تقاليد التحليل النفسي حماية خصوصية المريض بإخفاء هويَّته عن معالجه لتسهيل عملية البوح بما يعتمل في النفس من نزاعات وتجاذبات وما يكبت في داخلها من آلام وآهات. وبالمثل، عندما تجلس وحيداً خلف شاشة الكمبيوتر يخامرك نفس شعور الخصوصية والتخفُّف من أثقال المسؤولية ممَّا يشجِّعك على التواصل والدردشة من أجل المتعة العابرة. حتَّى أولئك المتمرِّسين الذين يعلمون علم اليقين أنَّ اتصالاتهم الإلكترونية يمكن حفظها ونشرها على الملأ يقعون فريسة وهم الخصوصية ويرفعون الراية البيضاء لإغراء القناع الذي يخفي ملامح الشخصية. فداخل حدود الشاشة تُتاح لك فرصة التحوُّل إلى الشخصية التي تريدها فتتخيَّل الآخرين بالشكل الذي تصوِّره لك أكثر أحلامك جموحاً. وهذه الفرصة الوهمية تجعلك تقع في شراكها لتصبح مع الوقت مدمناً لتلك التصوُّرات الذهنية فتبقى جامداً أمام الشاشة على الدوام.

سحر الألعاب الإلكترونية

يتساءل الكثير من عاشقي الألعاب الإلكترونية باندهاش: «ماذا أصابني؟ أيُّ ذهول يعتريني كلَّما بدأت اللعب ضد الكمبيوتر لدرجة فقدان الشعور بالزمان والمكان ونسيان الأهل والأصدقاء والواجبات والالتزامات. فأيُّ سحر تُخفيه هذه الألعاب الرقمية؟!».

لا عجب في ذلك أبداً، لأنَّ هذه الألعاب تتحوَّل من وسيلة للتسلية واللهو إلى متاهة لا تتوقَّف فيها عن البحث عن شيء مفقود، أو شيء تراه ولا تطوله. عندما نكون وحيدين تُشعِرنا الروبوتات بالألفة وكأنَّنا في حضرة الأهل والأصدقاء، أمَّا الاتصالات الإلكترونية عبر شبكات التواصل الاجتماعي وعالم الألعاب الرقمية فيفصلنا حدٌّ الوحدة عمَّن يجاورنا في حياتنا اليومية. نحن في الحالتين نتعاطى المسَكِّنات التكنولوجية التي تدخلنا «نطاق العزلة»، حيث لا مكان للتركيز المُرهِق بل الارتياح وحسب.

الطبيب النفسي «ميهالي تسيكزنتميهالي» أشار إلى «نطاق العزلة» عندما تحدَّث عن حالة التدفُّق الانسيابي التي تصف اندماج المرء في القيام بعمل حدَّ الاستغراق الذي لا يُنسِيه ما حوله فحسب، بل ينسى ذاته معه أيضاً فيتطاير الزمن ويتبدَّد القلق ويصل

الفرد إلى حالة الاتزان حيث تلتقي المهارات والقدرات بالأهداف المناسبة والتحديات وتشعر معها بأنَّك مخلوق لهذا العمل وأنَّك تعزف موسيقاك الخالدة.

إنَّ حالة التدفُّق الانسيابي تفسِّر هذا الشغف المجنون الذي نراه في لاعبي كرة القدم والمتزلِّجين على الثلج والقافزين بالمظلات من أعالي الارتفاعات، وليس بعيداً عن ذلك حالة الهوس اللامحدود لعاشقي الألعاب الإلكترونية والدردشات الفيسبوكية. فعندما تصبح حياتك الافتراضية هي لعبتك التي تندمج معها وتستغرق فيها، فإنَّ عزلتك تزيد كلَّما أوغلت في طلبها، إنَّه كسراب «يحسبه الظمآن ماءً حتَّى إذا جاءه لم يجده شيئاً» في متسلسلة لا منتهية من الإغواء الإلكتروني. إنَّها الصورة التي رسمها الفلاسفة وعبَّر عنها الشاعر بقوله: «كالنَّار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله»، تلك الصورة التي تقفز إلى الأذهان كلَّما تعاظم التعلُّق بكلِّ ما هو إلكتروني على حساب التواصل الإنساني، وكلَّما طغى الانغماس في العالم الافتراضي على العيش في الواقع الحقيقي.

دع التحديق وابدأ التحليق

ينتقل المراهقون من تطبيق إلى تطبيق، ومن شاشة إلى شاشة وهم يسابقون الزمن لإرسال الرسائل الفورية والردِّ عليها، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنَّ رسائلهم في الغالب لا تحظى بالاهتمام لأنَّهم لا يولون رسائل الآخرين الاهتمام الكافي، فيضيع الشعور بأنَّك شخص فريد ومرغوب في هذا الخضم المتلاطم من الرسائل الإلكترونية.

هذا المراهق هو ذلك الطفل الذي تفتَّحت عيناه على أبٍ يقضي وقته يتحدَّث في هاتفه الجوَّال والاطلاع على رسائل العمل التي تأتيه من دون توقُّف، وأمٍّ لا تتوقَّف عن التحديق في جوَّالها في أثناء إطعامه وملاعبته ومداعبته، يدٌ تهزُّ الأرجوحة وأخرى ترسل رسالة إلى صديقاتها وأقربائها، عينٌ على الطفل وأخرى مشدودة إلى «الواتس اب»، لسان يعلِّم الطفل الأرقام وأصابع تصوِّر ذلك الحدث لتبثَّه عبر الإنستجرام. لقد أضحت الهواتف الذكية والأجهزة اللوحية جزءاً لا ينفكُّ عن العائلة حتَّى في الرحلات السياحية والعطلات العائلية الترفيهية.

لطالما كافح الأطفال لنيل الاهتمام الكافي من والديهم الغارقين في مشاكل العمل وتبعات الحياة والواجبات الاجتماعية المتواصلة، لكنَّ قَدَرَ هذا الجيل أن يسعى إلى نيل اهتمام الوالدين بشكلٍ جديد، فالآن أصبح لزاماً على مراهق أو ابن هذا الجيل أن يناضل في سبيل الحصول على اهتمام أبٍ وأم يجلسان إلى جانبه. فالأجساد متقاربة والعقول متباعدة. ومن المألوف أن تسمع الأطفال منذ سن الثامنة وحتَّى سنوات المراهقة يعبِّرون عن مشاعر الإحباط لانشغال أهلهم عنهم وعدم الاهتمام بهم هؤلاء الأطفال لم يعودوا واثقين الآن من اهتمام أيِّ طرف آخر بهم.

ولهذا عندما يُرخي الليلُ سدولَه يجلس أغلب المراهقين خلف شاشات الكمبيوتر يتبادلون تغريداتهم التويترية ومنشوراتهم الفيسبوكية ورسائلهم الإلكترونية حيث تحتلُّ هذه الأنشطة

مساحةً من العقل تضاف إلى مشاهدة الأفلام وممارسة الألعاب والتسوُّق وحلِّ الواجبات المدرسية. وفي النهار يصرفون أوقاتاً معتبرة في التواصل من خلال كتابة الرسائل الهاتفية، لكنَّهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنَّهم يفقدون حميميَّة التواصل المباشر الذي يضمن وضوح الرسالة التي تتجلَّى في لغة الجسد وتعبيرات الوجه ونبرات الصوت.

إنَّ التواصل الإلكتروني عرضة للانقطاع المستمرِّ بسبب ضعف الشبكات في بعض الأوقات، والفهم الخاطئ من جهة، وانشغال الإنسان عمَّن حوله من جهة أخرى، وإذا بالدواء الذي وُصِف لوصل ما تقطَّع من علاقات يزيد المعاناة ويضاعف المشكلات الاجتماعية والتربوية والسلوكية بدلاً من حلها.

ما الذي نريده حقاً؟

قبل عقود كنَّا نسأل ما مجالات استخدام الحاسب الآلي؟ واليوم نسأل هل بقي شيء لم ولن يقتحمه هذا الجهاز الذكي؟ لقد قدَّمت لنا التكنولوجيا نفسها بوصفها مصباح علاء الدين السحري الذي سيفتح لنا الأبواب الموصدة، ويتيح لنا فعل أيِّ شيء في أيِّ وقت ومن أيِّ مكان ومع أيِّ إنسان، لكنَّها – في نفس الوقت – استنزفت جُهدنا وجفَّفت عاطفتنا وأربكت بوصلتنا في محاولة فعل كلِّ الأشياء في جميع الأنحاء.

صحيح أنَّنا أصبحنا قادرين على مباشرة أعمالنا من أيِّ مكان، لكنَّ مشاعر الوحدة تؤرِّقنا في كلِّ آن، ومن حيث لا نحتسب وقعنا في العزلة الجديدة رغم اتصالاتنا العديدة عبر المسافات البعيدة. لقد استعنَّا بالتكنولوجيا لملء الفراغ ومن أجل الإبداع، فما فتئت التكنولوجيا تتقدَّم وتتضخَّم ومشاعرنا وعواطفنا تتراجع وتتَقزَّم.

بالتأكيد لا ينبغي لأحد ولا يستطيع أحد أن يرفض التكنولوجيا، لكنَّها دعوة إلى «الإنسالوجيا»، أي إعادة تشكيل نظرتنا إلى التكنولوجيا لتعزِّز القيم والروابط الإنسانية. ومرَّة أخرى نذكِّر بمقولة «وينستون تشرتشل»: «نحن نصمِّم ونُشكِّل أبنيتنا، ثمَّ تأتي هي لتشكِّل شخصيَّاتنا». ولذا علينا أن ننتبه إلى أنَّ التكنولوجيا التي نبتكرها ونطوِّرها ونصنعها، تعيد بدورها تشكيل قيمنا ومشاعرنا وعلاقاتنا بأسرنا وأعمالنا وأطفالنا، وحتَّى بذواتنا.

كتب مشابهة:

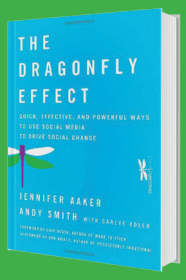

The Dragonfly Effect
Quick, Effective, and Powerful Ways to Use Social Media to Drive Social Change.

By Jennifer Aaker and Andy Smith. 2010

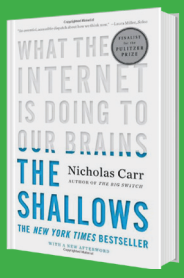

The Shallows
What the Internet Is Doing to Our Brains

By Nicholas Carr. 2011

Personal Connections in the Digital Age

By Nancy K. Baym. 2010

قراءة ممتعة

ص.ب: 214444
دبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 3444 423 04
نستقبل آراءكم على pr@mbrf.ae

تواصلوا معنا على

MBRF_News
MBRF_News
mbrf.ae
www.mbrf.ae

Qindeel | قنديل
لخدمات الطباعة والنشر

Nobel Museum

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

بتوجيهات
صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم
نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي "رعاه الله"

وبرعاية
سمو الشيخ أحمد بن محمد بن راشد آل مكتوم
رئيس المؤسسة

تستضيف مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

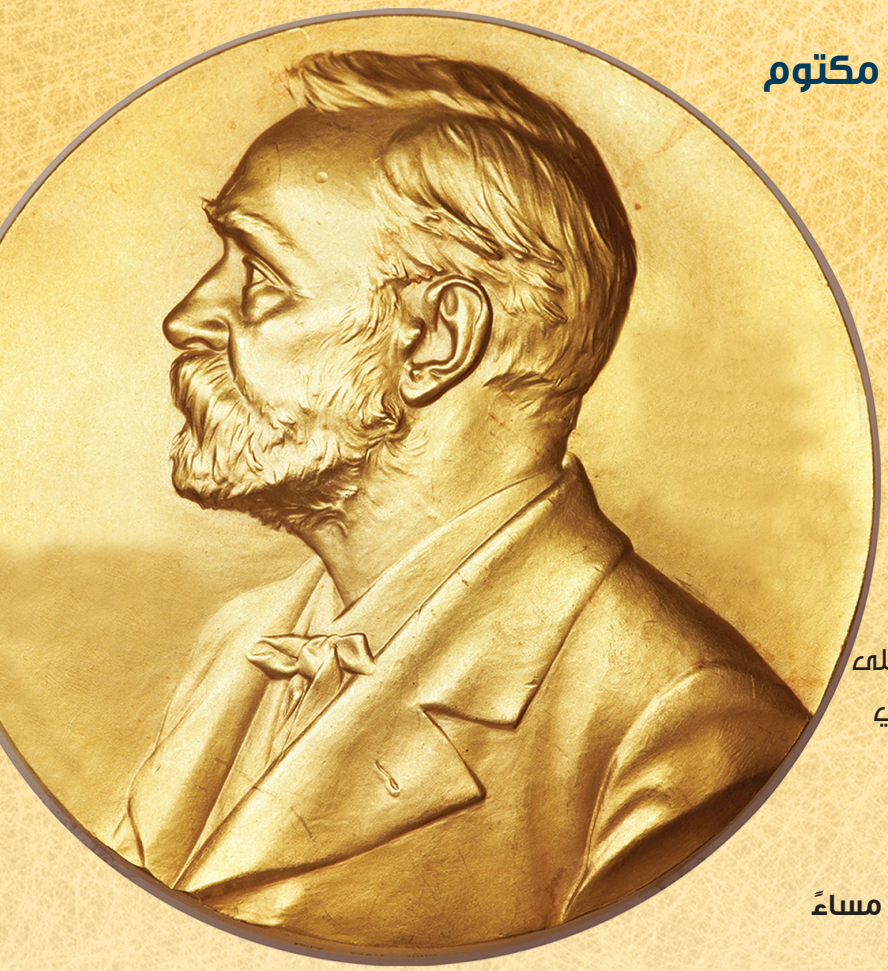

متحف نوبل:

أفكار تغيّر العالم

يسلّط المتحف الضوء على أهمية ومكانة جائزة نوبل على الصعيد العالمي، وتعتبر دبي الأولى في المنطقة التي تستضيف المتحف بشكله ومفهومه الجديد.

أوقات دوام المتحف:
من السبت الى الخميس من الساعة 9 صباحاً حتى 7 مساءً
30 مارس - 30 ابريل، 2015
المكان: مبنى "انيكس" برج خليفة

#افكار_تغير_العالم

الدعوة عامة

الشركاء الاستراتيجيون: EMAAR، دبي DUBAI
الناقل الرسمي: Emirates
الشريك الاعلامي الاستراتيجي: مؤسسة دبي للإعلام DUBAI MEDIA INC
الشركاء الاعلاميون: HILLS ADVERTISING L.L.C، CNBC عربية، NATIONAL GEOGRAPHIC ABU DHABI HD
إدارة: entourage marketing & events

ان ميدالية جائزة نوبل هي علامة تجارية مسجلة لصالح مؤسسة نوبل